المجمع 21 (2025/1447)، 227-254

الحياة الفكريّة في القدس في العهد السَّلجوقيّ

مشهور الحبازي[1] وأحمد داود دعمس[2]

Jerusalem's Intellectual Life during the Seljuks Era

Mashhour al-Habazi and Ahmad Dawod Daamas

Abstract

In 463 AH, the Seljuks restored large parts of the Levant from the Fatimids. By 465 AH, Atz ibn Awq al-Khawarizmi controlled Jerusalem, implementing political, civil, and religious changes. This era saw the rise of the Abbasid caliphate, Sunni doctrine, the opening of schools, and efforts to spread Islam. The Fatimids enforced Ismaili Shiism on Sham, and in 469 AH, a military campaign by Arabs, Turkmens, and Seljuks failed to restore Egypt under the Abbasids. The Seljuks held Jerusalem until 489 AH, when the Fatimids reclaimed it until it fell under the control of the Crusaders in 492 AH. This paper discusses Seljuk-Fatimid relations, Crusader interactions, and alliances to control Sham and suppress the Seljuks, with Crusaders seeking the north and Fatimids the south. It highlights the role of the Aqsa Mosque in fostering religious and cultural activity and the influence of Imam Abu Hamid al-Ghazali and Sheikh Maqdisi Nabulsi in spreading knowledge and combating negative beliefs. The study shows how Ghazali's writings and the efforts of Seljuk rulers—Artek bin Aksk, Elghazi, and Suqman—were vital in reforming and stabilizing Jerusalem's Muslim community and intellectual life.

.

[1] جامعة القدس- القدس الشَّريف- فلسطين.

[2] جامعة القدس- القدس الشَّريف- فلسطين.

الملخّص

استطاع السّلاجقة استعادة أجزاء واسعة من بلاد الشَّام من العبيديّين بدءًا من عام (463هـ) حيث حرَّرها "أتسز بن أوق الخوارزميّ"، وفي سنة (465هـ) اتّخذ "أتسز بن أوق" مدينة القدس مقرًّا لحكمه، وقام بتغييرات سياسيّة ومدنيّة ودينيَّة كثيرة في المدينة، ومن ذلك: قطع الخطبة للخليفة العبيديّ، وإقامتها للخليفة العباسيّ، وبدء الدّعوة للإسلام السّني ففتح المدارس، والزَّوايا لنشر الإسلام، والقضاء على التشيّع الإسماعيليّ الَّذي فرضه العبيديّون على أهل الشَّام بالقوة. وفي عام (469هـ) جهز حملة عسكرية مكوّنة: من العرب، والتركمان، والسّلاجقة، وغزا مصر مركز الخلافة العبيديّة، للقضاء عليها، وإعادة البلاد إلى الخلافة العبّاسيّة، لكنّ الحملة فشلت فشلًا ذريعًا. وبعدها استقرّ حكم السّلاجقة في القدس حتَّى سنة (489هـ) حيث احتلها العبيديّون مرّة ثانية، وبقيت في أيديهم حتَّى احتلها الصَّليبيُّون سنة (492هـ).

في هذا البحث درست علاقة السّلاجقة بالعبيديّين، وعلاقتهم بالصّليبيّين، واتّفاق العبيديّين مع الصّليبيّين على اقتسام بلاد الشَّام فيما بينهم والقضاء على السَّلاجقة، فيأخذ الصّليبيّون شمال الشَّام، ويأخذ العبيديّون جنوبه، كما درست أهم مظاهر الحياة الثَّقافيّة في القدس في عهد السّلاجقة الَّذي لم يتجاوز ربع قرن، حيث انتشرت المدارس، وأهمّها المدرسة النَّصريّة ثمَّ الغزالية (الصّلاحيّة اليوم)، وحلقات العلم في المسجد الأقصى المبارك، ودوره في تنشيط الحياة الثَّقافيّة في القدس بخاصة والعالم الإسلاميّ بعامّة، ودور الإمام أبي حامد الغزاليّ وشيخه المقدسيّ النَّابلسيّ في نشر العلم في القدس، ومحاربة البدع، والمعتقدات السَّلبيَّة الَّتي كانت سائدة في القدس، ما دفع الإمام الغزاليّ إلى تأليف الرّسالة القدسيّة؛ لإصلاح أحوال مسلمي القدس، ثمَّ دور حكام القدس السّلاجقة في ذلك، وهم: أرتق بن أكسك، وابناه إيلغازي، وسقمان.

تمهيد

تعود أصول قبيلة السّلاجقة إلى قبائل الأتراك الأغوز، وقد أطلق كثير من المؤرّخين والأدباء العرب عليهم اسم "الغزّ" تخفيفًا، والأرجح أنّهم سُمّوا بالسّلاجقة نسبة إلى زعيمهم سلجوق بن دُقاق (ت. 349هـ)، الَّذي اتّخذ مدينة جند[3] عاصمة له، ولمّا دخلوا الإسلام أَطلق عليهم العرب اسم التركمان.

وقد تمكّن السّلاجقة من تأسيس دولة لهم بعد الانتصار الَّذي حقّقه السّلطان طغرلبك بن محمد بن ميكائيل على الدولة الغزنويّة في معركة سرخس سنة (429هـ)، ثمّ القضاء عليها بعد سنتين، حيث اتّخذ مدينة نيسابور عاصمة، وتلقّب بلقب السّلطان الأعظم، ركن الدّين والدّنيا[4].

كان السّلطان طغرلبك طموحًا؛ فسعى إلى تأسيس مملكة إسلاميّة ما بين بلاد ما وراء النّهر وشرق البحر المتوسط، فحارب كلّ مَنْ وقف أمامه من الملوك والأمراء وقضي عليه، فيما كان يُقرّ الملوك والأمراء الَّذين يدخلون في طاعته على ممالكهم وإماراتهم، وقد اضّطر إمبراطور

[3] جَندٌ: مدينة عظيمة في بلاد تركستان، وأهلها مسلمون على مذهب أبي حنيفة، رضي الله عنه، وإليها يُنسب الأديب والقاضي يعقوب بن شبرين الجَنديّ، وهي اليوم في جمهوريّة كازخستان واسمها "جاند". انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان، 168/2.

[4] الرّاونديّ، راحة الصدور، 168؛ البنداريّ، تاريخ دولة آل سلجوق، 8؛ محمد زيباري، سلاجقة الرّوم، 48؛ شوقي ضيف، تاريخ الأدب، ص491. ونيسابور: مدينة عظيمة، ذات فضائل كثيرة، فتحها القائد المسلم الأحنف بن قيس زمن الخليفة الفاروق، عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه، وقد عمّرها السّلاجقة فأصبحت من أكثر البلاد عمرانًا إلى أن دمّرها التّتار سنة (618هـ)، فيقال: إنّ شيعيًّا باطنيًّا كان متقدّمًا على أحد أبوابها، فراسل التّتار، وشَرط عليهم أن يجعلوه مقدّمًا على المدينة وأعمالها إن سلَّمهم إيّاها، فأجابوا طلبه، ففتح لهم الباب، وأدخلهم المدينة، فكان أوّل عمل قاموا به أن قتلوه وجماعته، وقيل: أخذها التّتار عنوة، فدمّروها وألحقوها بالأرض. وهي اليوم في إيران في مقاطعة خراسان. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان، 331/5.

القسطنطينيّة إلى طلب الهدنة معه، وكان من شروط الهدنة السّماح له بتعمير المسجد فيها، وإقامة الخطبة فيه باسمه [5].

بعد أن أقام السّلطان مملكته، تطلع إلى أخذ الشّرعيّة من الخليفة العباسيّ القائم بأمر الله، عبد الله بن أحمد (ت467هـ) في بغداد، الَّذي كان وزراؤه البويهيّون يتآمرون عليه مع الدولة العبيديّة الشّيعيّة في القاهرة، فطلب النّجدة من السّلطان طغرلبك، الَّذي لبّى الطلب، فقضى على البويهيّين، وخلّص الخلافة العبّاسيّة من شرورهم، ودخل بغداد سنة (447هـ). فلقّبه الخليفة ركن الدّين، ويمين أمير المؤمنين، ومَلِك الشّرق والغرب، ونقش اسمه على السكّة، فيما أظهر السّلطان طغرلبك عظيم احترامه للخليفة. وتعهّد له بحماية الخلافة، وأرض الإسلام والمسلمين من الأعداء في داخل الدّولة وخارجها. ولمّا توفي سنة (455هـ) خلفه ابن أخيه السّلطان ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل، الَّذي تمكّن من توطيد ملكه، بالقضاء على المتمرّدين عليه، وإشاعة العدل بين رعايا دولته، وتقريب العلماء منه، وإعلاء شأنهم؛ فلُقّب بالملك العادل[6].

وكان من أهمّ أعمال السّلطان ألب أرسلان نشر الإسلام في منطقة بحر قزوين، وتحقيق انتصار باهر على إمبراطور بيزنطة "رومانوس الرّابع ديوجينوس" في معركة ملاذ كرد (منازكرد) سنة (463هـ)، حيث انفتحت أمام السّلاجقة بلاد بيزنطة، والجزيرة الفراتيّة، وبلاد الشَّام، وفي المقابل اضّطرت بيزنطة إلى طلب المساعدة من بابا روما؛ فكان طلب المساعدة بداية شرارة الحروب الصّليبيّة [7].

[5] انظر: محمد أبو النصر، السّلاجقة، 7-9.

[6] انظر: الرّاوندي، مصدر سابق، 171؛ ابن الجوزي، المنتظم، 164/8؛ ابن الأثير، الكامل، 254/9؛ سهيل زكّار، مدخل، 97.

[7] انظر: ابن القلانسيّ، ذيل تاريخ، 99؛ ابن الأثير، مصدر سابق، 108/8؛ السيوطي، اتعاظ الحنفا، 302/2؛ خليل عثامنة، فلسطين، 284.

السّلاجقة في بلاد الشَّام:

استغلّ السّلاجقة الباب الَّذي فُتح لهم؛ فتوجّه إلى الأمير أتسز بن أوق إلى بلاد الشَّام الخاضعة لحكم العبيديّين الشّيعة؛ فحاصر دمشق من دون أن يستطيع فتحها، ثمّ توجّه إلى جنوب سوريا؛ ففتح الرّملة وبيت المقدس وغيرها من المدن في فلسطين سنة (463هـ)، وحاول التوجّه إلى مصر للقضاء على الدّولة العبيديّة نهائيًّا سنة (469هـ) لكنّه لم يُفلح في ذلك، فاستقرّ ملكه في المنطقة شمال مدينة عسقلان على ساحل البحر المتوسّط جنوبي فلسطين.

حاولت الدّولة العبيديّة أكثر من مرّة استعادة ما فقدته في بلاد الشَّام، وكان من أهم تلك المحاولات قيامها بتجهيز جيش ضخم بقيادة نصر الدّولة الجيوشيّ سنة (469هـ)، حيث حاصر دمشق، فطلب الأمير أتسز بن أوق النّجدة من السّلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، الَّذي كان تولّى الحكم بعد وفاة أبيه ألب أرسلان سنة (465هـ) غِيلةً على يدِّ أحد الباطنيّة الإسماعيليّة (الحشّاشين)، وقد استجاب السّلطان ملكشاه لطلب الأمير أتسز بن أوق؛ فأرسل له نجدة بقيادة أخيه تاج الدّولة، تُتش بن ألب أرسلان، وتعهّد أن يكون تابعًا لأخيه ملكشاه، فلمّا وصل دمشق سنة (471هـ) هرب نصر الدّولة الجيوشيّ بمَنْ بقي من جنده إلى ساحل فلسطين، ثمّ قضى على أمير دمشق أتسز بن أوق، وتولّى هو نفسه الحكم في دمشق، وجعلها عاصمة لملكه، وبذلك قامت دولة سلاجقة الشَّام[8].

السّلاجقة في القدس:

خضعت القدس للحكم السَّلجوقيّ منذ سنة (463هـ) حيث حرّرها الأمير أتسز بن أوق ومعها عدد من مدن فلسطين الكبيرة، وفي سنة (465هـ) اتّخذها مقرًّا لحكمه، وقام بإجراء تغييرات سياسيّة ودينيّة واجتماعيّة فيها، وكان من أهم تلك الإجراءات: إعلان الخطبة للخليفة العباسيّ في بغداد، وبدء الدّعوة إلى الإسلام على مذاهب الأئمة الأربعة، وإلغاء الخطبة للخليفة العبيديّ في القاهرة، وقد أدى ذلك إلى حدوث تغيير كبير في حامية المدينة العبيديّة، حيث انضمّ أَفراد

[8] انظر: ابن القلانسيّ، مصدر سابق، 99؛ الرّاوندي، مصدر سابق، 190؛ شوقي ضيف، مرجع سابق، 492.

الحامية من الأتراك إلى جيش الأمير أتسز بن أوق، بينما انخرط بقية أفراد الحامية من السُّودان والمصامدة في عامّة النّاس مع حفظ حقوقهم المدنيّة، ولم يلحق بهم أي أذى على أساس خدمتهم السّابقة في الحامية العبيديّة، كما أنّ الجهاز الإداريّ العبيديّ الَّذي كان يتولّى تدبير شؤون المدينة من مثل: القاضي والمحتسب، وصاحب الشّرطة حلَّ نفسه، وعاد لممارسة حياته العاديّة مع حفظ حقوقهم العامّة وعدم إلحاق أي ضرر بهم[9]. وبذلك أصبحت القدس وأغلب أرض فلسطين باستثناء ثلاث مناطق هي: عسقلان، وعكّا، وطبريا جزءًا من الدّولة السَّلجوقيّة في بلاد الشَّام.

وقد حرص الأمير السَّلجوقيّ أتسز بن أوق في حصاره مدينة القدس على احترام قدسيّتها، وعدم سفك دماء المسلمين فيها، فامتنع عن قتال حاميتها العبيديّة، وأخذها عنوة، بل لجأ إلى إطالة مدّة الحصار كي يضّطر حاكمها إلى الاستسلام، وقد أكدّ ذلك المؤرّخ العربيّ سبط ابن الجوزي حيث قال: إنّ الأمير أُتسز السَّلجوقيّ حاصر القدس، ورفض قتال حاميتها العبيديّة، والاستيلاء عليها بالقوة لحرمتها، ما أدى إلى طول مدّة الحصار، وارتفاع الأسعار، فاضّطر واليها للمفاوضة، وتسليم المدينة للأمير أتسز[10]. ويؤكّد ذلك ما ورد في رسالة الأمير أتسز إلى الخليفة العباسيّ والسّلطان السَّلجوقيّ الَّتي أخبرهما فيها بما حصل عندما فتح المدينة المقدّسة، قال: "حَرمُ الله (أي القدس الشَّريف) لا أُقاتله، وإنّما أُريدُ إقامة الدّعوة العباسيّة والسُّلطانيّة"[11].

كان والي القدس العبيديّين تركمانيّ الأصل، وقد دافع عن القدس بكلّ ما أوتي من قوّة، لكنّه لمّا أيس من وصول مساعدات عُبيديّة له من مصر أو الشَّام لفك الحصار عن المدينة، راسل الأمير أتسز، وعرض عليه تسليمه المدينة صلحًا، ومِمّا جاء في رسالته إلى الأمير أتسز بن أوق قوله: "أَنا منكم (أبي تركمانيّ)، وما أَقمتُ على الامتناع إِلّا وفاءً لِمَنْ كُنتُ خادمًا له، وعبدًا

[9] انظر: سبط ابن الجوزيّ، مرآة الزمان، 169؛ مصطفى الحياري، القدس في زمن، 29.

[10] انظر: ابن الجوزيّ، المنتظم، 25/6.

[11] انظر: سبط ابن الجوزيّ، مرآة الزّمان، 169.

(أي للخليفة العبيديّ في القاهرة)، وقد فعلتُ ما يجب عليّ (أي الدّفاع عن المدينة)؛ فإنْ أَمَّنْتني على نفسي ومالي سَلَّمتُ إليكَ البلدَ، ونزلتُ إليك"[12].

وعندما تسلّم الأمير أتسز المدينة من واليها التّركمانيّ الأصل أوفى لوالي المدينة العبيديّ وأهلها بكلّ ما تعهّد لهم به، وعامل كلّ مَنْ كان فيها بأخلاق الإسلام العظيم، فبثّ بعض رجاله يُنادون في أسواق المدينة، وأحيائها بمنح الأمان لأهلها، وأمر رجاله بعدم التعرّض لشيء من أموال المواطنين الَّتي كانت عظيمة، وعيّن رجالًا من جنوده لحفظ أموال أهل المدينة، وممتلكاتهم.

القدس السَّلجوقيّة:

استمرّ الحكم السَّلجوقيّ في مدينة القدس الشَّريف مدّة تزيد قليلًا عن سبعة وعشرين عامًا في أبعد تقدير، وعلى الرّغم من قصر هذه المدّة إلّا أنّها لم تكن مُستقرّة، فقد حاول العبيديّون باستمرار استعادة المدينة، وكان أهم تلك المحاولات سنة (465هـ) حيث استعادوها لبضعة شهور، ثمّ سنة (469هـ) حيث حاصروها بقيادة نصر الدّين الجيوشيّ لكن من دون جدوى.

في عام (471هـ) قام الأمير تتش بن ألب أرسلان بإقطاع القدس وأعمالها للأمير أرتق بن أكسب التركمانيّ، وهو جدُّ الملوك أصحاب إمارة ماردين الأرتقيّة، واستمرَّ الأمير أرتق يحكم المدينة حتَّى وفاته (484هـ)، فخلفه في حكمها ولداه سُكمان وإيلغازي، وقد استمرَّ حكمهما للمدينة حتَّى شهر رجب سنة (491هـ) حيث استغل الخليفة العبيديّ مُواجهة أُمراء السَّلاجقة للغزو الصّليبيّ في شمال سوريا والأناضول، حيث استطاع الصّليبيّون احتلال مدية الرّها وغيرها من المناطق وأقاموا أوّل إمارة لهم فيها، وما ترتّب على ذلك من ضعف وخلاف بين أُمراء السّلاجقة، وبدلًا من مُساعدة الجيوش السَّلجوقيّة الَّتي كانت تجمَّعت من معظم الإمارات السَّلجوقيّة لمواجهة الصّليبيّين، وكان منها قوات من القدس، بدلًا من ذلك: أرسل وفدًا من القاهرة لمفاوضة الصّليبيّين - وهم يُحاصرون أنطاكية - للاتفاق معهم ضدَّ السّلاجقة، فاتفق

[12] انظر: المصدر نفسه، 169.

وفده مع الصّليبيّين على اقتسام بلاد الشَّام؛ لهم شمال دمشق، وله جنوبها. ثمّ كلّف الأمير العبيديّ الأفضل بن بدر الجماليّ باحتلال القدس كجزء من هذا الاتفاق، فقام الأفضل بمحاصرة المدينة المقدّسة، وتمكّن من احتلالها حربًا، فخرج الأميران الأرتقيان سكمان وإيلغازي إلى دمشق، ثمّ إلى بغداد. قال ابن القلانسيّ في حصار الأفضل للقدس: "خرج الأفضل، أمير الجيوش من مصر في عسكرٍ كثيرٍ إلى ناحيةِ الشَّام، ونزلَ على بيت المقدس، وفيه الأميران: سُكمان وإيل غازي ابنا أَرتَق، وجماعة من أقاربهما، ورجالهما، وخلق كثير من الأتراك، فراسلهما، يلتمسُ منهما تسليم بيت المقدس إليه من غير حرب ولا سفكِ دمٍ، فلمْ يُجيباه إلى ذلك، فقاتل البلد، ونصبَ عليه المناجيق؛ فَهُدِمت ثلمة من سوره، وملَكَه، وتسلّم مِحرابَ داود من سُكمان، ولمّا حصل فيه أَحسنَ إليهما، وأَنعمَ عليهما، وأَطلَقهما ومَنْ معهما... وعاد الأفضل في عسكره إلى مصر"[13]. وقد عيَّن الوزير الأفضل الأمير افتخار الدّولة حاكمًا للقدس، الَّتي سرعان ما سَقطت بيد الصّليبيّين في شهر رجب (492هـ) أي بعد أقل من سنة من احتلال العبيديّين لها؛ إذ لم يلتزم الصّليبيّون باتفاقهم مع العبيديّين[14].

الحياة الثَّقافيّة في القدس من خلال حديث أبي بكر ابن العربيّ:

تنقّل أبو بكر ابن العربيّ في فلسطين (الأرض المقدّسة) فزار أكثر مدنها وقراها، وتحدّث عن بعض ما وجده فيها من جوانب الحياة الاجتماعيّة والدّينيّة، والفكريّة، والسياسيّة، ويمكن القول إنّ فلسطين الَّتي وصف بعضها أبو بكر ابن العربيّ فيما بقي من رحلته المعروفة باسم "ترتيب الرّحلة، للتّرغيب في الملّة"، كانت أكثر عُمرانًا مِمّا هي عليه الآن بعد أكثر من تسعمائة وخمس وأربعين سنة، إذ قد لا يزيد عدد قراها هذه الأيام (1446هـ) عن ألف قرية، وهذه الَّتي زارها ابن العربيّ فقط. حيث ذكر أنّه زار أكثر من ألف قرية في بريّتها، قال: "ولقد دخلتُ نيّفًا على أَلفِ قريةٍ من برّيّة"[15].

[13] انظر: ابن القلانسي، مصدر سابق، 135.

[14] انظر: انظر: مصطفى الحياري، مرجع سابق، 39.

[15] ابن العربي، أحكام القرآن، 1523/3.

وقد كان ابن العربي مُحبًّا لزيارة المزارات، والزَّوايا، والأربطة، والمشاهد الدينيّة والتّاريخيّة المتنوّعة والمنتشرة في أنحاء فلسطين، وعليه فقد زار على الأرجح كلّ قرية، أو مكان فيه واحد من تلك المزارات أو المشاهد، ويؤكد ذلك أنّه ذكر في أكثر من موطن في رحلته حرصه على زيارة المزارات في فلسطين[16].

ومع شديد الأسف، فإنّ رحلة ابن العربيّ لم تصلنا كاملة، وبذلك فإنَّ أخبار الألف قرية الَّتي زارها قد فقدت، وبالتّالي فقدنا كثيرًا من مناحي الحياة الثَّقافيّة فيها، ولم يبق لنا إلّا أخبارًا قليلة عن سبع مدن زارها، هي: أربعة كانت خاضعة للحكم الأرتقيّ السَّلجوقيّ وهي: القدس، والخليل، وحلحول، ونابلس، وثلاثة كانت خارج ذلك الحكم وهي: عسقلان، وعكّا وطبريا.

وقد أكّد أبو بكر ابن العربيّ مدى ازدهار الحياة الثَّقافيّة في القدس في ستّة مواطن ممّا بقي من رحلته، وهي: في القدس، فما إن دخلها، وزار الحرم القدسيّ الشَّريف، وطاف في المسجد الأقصى المبارك، ومسجد قبّة الصّخرة المشرّفة، وأروقة الحرم، ومصاطبه، وساحاته حتَّى اتّضح له ما فيها من علوم، ومعارف متنوّعة، فدخل بعض مدارسها، و حضر عددًا من مجالس علمائها، فكان لذلك جميل الأثر في نفسه، وتيقَّنَ أنّه سيجد في القدس، وحرمها الشَّريف ما كان يصبو إليه منذ سمع والده يتحدّث مع بائع الكتب القادم من المشرق، فَباح لأبيه برغبته قائلا: "إنْ كان لك نيّةً في الحجّ فامْضِ لِعزمك، فإنّي لستُ برائمٍ عن هذه البلدة حتَّى أَعلمَ عِلمَ مَنْ فيها، وأجعل ذلك دستورًا للعلم وسلَّمًا إلى مراقيها"[17]. فساعده والده، فانفصلوا عن صحبتهم الَّتي كانوا قدموا معهم للحجّ.

وعندما التقى أبو بكر ابن العربيّ شيخه أبا بكر الفهريّ الطّرطوشيّ في مجلس علمه الَّذي كان يَعقده في موضع "السَّكينة"، تقدّم عبد الله والد أبي بكر إلى أبي بكر الفهريّ الطَّرطوشيّ وحدّثه برغبة ابنه في التّعلُّم عليه، فرحّب به، فبادر ابن العربيّ إلى اتّخاذ بيت المقدس موطنًا

[16] ابن العربيّ، المصدر نفسه، 523/2، و1584/3-1585، و4/ 1609؛ وانظر: سعيد أعراب، مع القاضي، 26-28، و65.

[17] إحسان عباس، مرجع سابق، 56.

له، وانقطع لطلب العلم، قال: "فاتّخذتُ بيت المقدس مباءةً، والتزمت فيه القراءة، لا أُقبلُ على دنيا، ولا أُكلِّم إنسيًّا، نواصل اللّيل بالنَّهار"[18].

وعندما طلب شيوخ أبي بكر ابن العربيّ في بيت المقدس منه التّوجُّه إلى السّاحل الفلسطينيّ، للقيام بمهمّة الوعظ والإرشاد لأهله الَّذين كان الشّيعة الإماميّة الإسماعيليّة قد لَوَّثوا أفكارهم، ومعتقداتهم الدّينيّة ما يُقارب الثمّانين عامًا، لبّى طلبهم فأمضى في السّاحل نحوًا من خمسة أشهر يعظ العامّة ويُرشدهم، ويُعلِّمهم أمور الدّين الحنيف، ويُناظر رؤوس النّحل الملحدة، والمذاهب الباطنيّة والإماميّة، قال: "فطوَّفتُ في مدن السّاحل لأجل تلك الأغراض الدينيّة، نحوًا من خمسة أَشهر"[19].

وكان من المدن الَّتي زارها في ساحل فلسطين، وأفرد لها حديثًا خاصًّا فيما بقي من رحلته مدينة عسقلان جنوبي فلسطين، والَّتي كانت تحت حكم العبيديّين، وقد وجدها كثيرة الأدب والعلم، فأَمضى فيها نحوًا من ستة أشهر، قال: "وخرجتُ حينئذ إلى عسقلان مُتساحلًا [أي عن طريق السّاحل]، فألفيتُ بها بحر أَدب ... فأقمتُ بها ارتوي منه نحوًا من ستة أشهر"[20].

وكان الموضع الخامس الَّذي وجد فيه علمًا كثيرًا هو قرية جلجون(أي مدينة حلحول)، حيث كان يزورها مرارًا كثيرة عندما كان يزور الخليل، فوجد مجلس علم يُعقد عند قبر يونس بن متّى، عليه السّلام، وكان يحضره في كلّ زيارة، قال عن زيارته قبر يونس، عليه السّلام: "ودرسنا كثيرًا من العلم عنده"[21].

أمّا المكان السّادس، فكان نابلس حيث أقام فيها عدّة أشهر. وعلى الرّغم من أنّه لم يذكر تلقيه علومًا معيّنة فيها إلّا أنّني لا أشك في أنه تلقّى دروسًا في أنواع عديدة من العلوم الَّتي كانت موجودة في مدينة نابلس، وذلك عندي هو المُبرّر الوحيد لإقامته فيها تلك الأشهر، وبخاصّة أنّ

18 إحسان عبّاس، مرجع سابق، 56-57.

19 ابن العربي، العواصم، 46.

20 إحسان عبّاس، مرجع سابق، 59.

21 ابن العربيّ، أحكام القرآن، 197/2.

ابن العربيّ كان يبحث عن العلم والعلماء في أثناء طوافه بفلسطين، قال: "فإنّي أقمت فيها أشهرًا"[22].

ويمكن تفصيل ما تحدّث عنه أبو بكر ابن العربيّ عن الحياة الثَّقافيّة في بيت المقدس على النّحو الآتي:

1- القدس، من خلال رحلة أبي بكر ابن العربيّ يظهر بوضوح أنَّ القدس كانت في العهد السَّلجوقيّ مقصدًا للعلماء، وطلبة العلم من فلسطين، وباقي البلاد الإسلاميّة؛ وهذا تطلّب وجود كثير من مجالس العلم والمناظرات في: ساحات الحرم القدسيّ، وأَروقته، ومصاطبه، وعدد من المدارس الَّتي كانت خاصّة بالمذاهب الفقهيّة الإسلاميّة الأربعة(الشّافعيّ، والحنفيّ، والمالكيّ، والحنبليّ) وأنّ هذه المدارس لم تكن تفرض شروطًا مذهبيّة على الطلبة الَّذين يرغبون في الالتحاق بها، كما وُجدت كثير من المساجد والزّوايا والأربطة الَّتي كانت تحفل بحلقات العلم، وأئمة العلماء. وكان التَّعليم في القدس الشَّريف يجمع بين الطّرق التَّعليميّة السّائدة في شرق العالم الإسلاميّ وغربه [23].

أمّا المدارس، فقد ذكر ابن العربيّ اثنتين منها فقط، وهما: مدرسة بباب الأسباط للشّافعيّة، ومدرسة أبي عقبة للحنفيّة. قال: "فوردت البيتُ المقدّس، طَهّره الله، فألفيتُ فيه ثمّاني وعشرين حلقةً، ومدرستين إحداهما للشَّافعيّة بباب الأسباط، والأخرى للحنفيّة بإزاء قُمامة، تُعرف بمدرسة أَبي عقبة"[24].

وفيما يخصّ مجالس العلم والمناظرات العلميّة والدينيّة؛ فقد كانت كثيرة-وإن لم يذكر عددها ابن العربيّ-، وكان يشترك فيها علماء من المسلمين من أتباع المذاهب الأربعة، ومن

[22] المصدر نفسه، 1523/3.

[23] انظر: إحسان عباس، مرجع سابق، 57؛ سعيد أعراب، مرجع سابق، 25. وكان يوجد ثلاث طرق للتعليم هي: القيروانيّة، وتقوم على التَّمثيل، وكانت معتمدة في الغرب الإسلاميّ. والعراقيّة، وتقوم على التَّعليل، وكانت معتمدة في الشَّرق الإسلاميّ. والطَّريقة الثَّالثة تقوم على الجمع بين القيروانيّة والعراقيّة.

[24] ابن العربي، العواصم، 45/2.

الشِّيعة الإسماعيليّة الباطنيّة، والنّصارى واليهود والسُّمرة[25]، وأهم دلالات هذه المجالس تتمثّل في: التَّسامح الدينيّ، والأمن العام الَّذي كان يتوافر للمواطنين في الإمارة السَّلجوقيّة حديثة العهد.

وكان للمسجد الأقصى دور مهم في تنشيط الحركة العلميّة، والتّسامح الدينيّ، فقد ذكر ابن العربي، وجود ثمّانية وعشرين إمامًا في المسجد الأقصى، وعشرات الحلقات العلميّة الَّتي كان يعقدها العلماء من أهل فلسطين أو الوافدين إليها من مختلف أنحاء العالم الإسلاميّ في ساحات الحرم القدسيّ الشَّريف، وأروقته، وعلى مصاطب العلم فيه، وأماكن خاصة بعدد من أعلام العلماء اتّخذوها لإعطاء دروسهم العلميّة، حيث كان يقصدهم فيها طلبة العلم، وقد ذكر مكانين منها أبو بكر ابن العربيّ، وهما: الغوير والسّكينة. قال: "وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقربُ منه إمامًا – من جملة الثمّانية والعشرين إمامًا- كان يُصلي"[26].

وكانت المدينة المقدّسة بعامّة والحرم القدسيّ بخاصّة قبلة العلماء المسلمين زمن السّلاجقة، ومنهم: القاضي الشّافعيّ، الرّشيد يحيى بن مفرّج المقدسيّ تلميذ العالم المقدسيّ الكبير نصر بن إبراهيم المقدسيّ. ومجلّي بن جميع المخزوميّ، وعطاء المقدسيّ، ومكّيّ بن عبد السّلام الرّمليّ الَّذي اعتقله الإفرنج بعد احتلالهم القدس سنة (492هـ) ثمّ لمّا علموا مكانته العلميّة طافوا به مناطق عديدة ليفتديه المسلمون بألف دينار، فلمّا لم يَفْدِه أحد، قتلوه، فكان لمقتله أثر كبير في نفس تلميذه أبي بكر ابن العربيّ، وعبد السلام الأنصاريّ، الَّذي قتله الإفرنج أيضًا مع مئات العلماء الَّذين قتلوهم عند احتلالهم القدس، وأبو الحسن مكرم بن

[25] السُّمرة: قوم من اليهود، كانوا يسكنون جبال بيت المقدس وقرى من أعمال مصر، وهم أكثر تقشُّفًا من سائر اليهود، وقبلتهم جبل جرزيم جنوبي نابلس، وهو عندهم جبل الطُّور الَّذي كلّم الله، سبحان وتعالى، عليه موسى، عليه السّلام، ويعترفون بنبوة موسى وهارون ويوشع بن نون، عليهم السّلام، فقط، وتوراتهم غير توراة اليهود. انظر: الشَّهرستاني، الملل والنّحل، 218/1.

[26] ابن العربي، أحكام القرآن، 1983/4. وانظر: العواصم، 45/2؛ إحسان عباس، مرجع سابق، 57.

مرزوق، ومن العلماء الوافدين أبو بكر الفهريّ الطّرطوشيّ، الَّذي كان من كبار علماء بيت المقدس، فكان له مجلس علم في موضع الغوير بالحرم القدسيّ الشَّريف، ولمّا التقاه أبو بكر ابن العربيّ، وعرف مكانته العلميّة كان سببًا في بقاء ابن العربيّ أكثر من ثلاث سنوات بفلسطين، وحقّق أمله في العلم ، وأبو عثمّان سعيد بن حسان الطليطليّ، وكان من كبار علماء الصّوفيّة، وفد إلى المشرق، وطاف فيه أربعين عامًا. وجماعة من العلماء نسبهم إلى بلدانهم، فقد وفدوا إلى بيت المقدس من بلاد العجم قبيل قدوم ابن العربي إليه، ومنهم: ابن الكازرونيّ، والشّيخ الزّوزنيّ، والإمام الصّاغانيّ، وأبو سعيد الزّنجانيّ، والقاضي أبو الفضل الرّيحانيّ، كما أخذ أبو بكر ابن العربيّ عن علماء في مدن فلسطينيّة أخرى عرف منهم: أبو الحسن علي القرويّ الَّذي أخذ عنه في عسقلان [27].

وبالنّسبة لطلبة العلم، فإنّ ما ضمّته المدينة المقدّسة من مدارس، وحلقات علم، وأماكن علم خاصّة بكبار العلماء، ومساجد، وزوايا، ومجالس علم ومناظرات، جعلت المدينة المقدّسة مقصدًا لهم من كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ، فوفد إليها مئات الطَّلبة من فلسطين وخارجها، فعَمروا المدارس، ومجالس العلم، وحلقاته الَّتي كانت تُعقد في المسجد الأقصى المبارك، ومسجد قبة الصخرة المشرّفة، ومسجد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ومحراب داود، عليه السَّلام، وفي باحات المسجد الأقصى المبارك وأروقته، وقد ذكر أبو بكر ابن العربيّ أنَّ جماعة من طلبة العلم وفدوا إلى القدس من بلاد العجم في أثناء إقامته فيه ومنهم: البسكريّ، وساتكين التركيّ[28].

2- عسقلان، وجدها أبو بكر ابن العربي بحر أدب، فدرسه فيها؛ شعرًا ونثرًا، كما درس فيها الموسيقى والعروض، ومن شيوخه الَّذين درس عليهم الأدب أبو الحسن علي القرويّ.

[27] انظر: ابن العربي، أحكام القرآن، 1584/3؛ عارضة الأحوذيّ، 35/9؛ العواصم، 372/2؛ مجير الدّين العليميّ، الأنس الجليل، 298/1؛ إحسان عباس، مرجع سابق، 56-57؛ سعيد أعراب، مرجع سابق، 21-29.

[28] انظر: إحسان عباس، مرجع سابق، 58.

3- عكّا والسّاحل الفلسطينيّ، رأى أبو بكر ابن العربيّ أنّ الساحل الفلسطينيّ كان مملوءًا بالفرق المُلحدة والضّالة، وأهل السنة، ولذلك قام ابن العربيّ-وبناء على طلب شيوخه- بمهمّة دينيّة في ساحل فلسطين استمرّت نحو خمسة أشهر، حيث كان يعقد مجالس مناظرات، فيفيد الناس ويعظهم ويرشدهم إلى الإسلام، ويحضر مجالس علم فيستفيد هو نفسه منها [29].

ما سبق يُظهر بشكل جليّ وواضح أنّ فلسطين كانت تعجُّ بالعلماء وطلبة العلم من أهلها أو الوافدين عليها على حدٍّ سواء، كما كانت تضمُّ ديانات عديدة، ومذاهب وفرق متنافسة، وقد شارك أبو بكر ابن العربيّ في الحركة العلميّة المزدهرة الَّتي كانت تعيشها فلسطين بعامّة وبيت المقدس بخاصّة؛ طالبًا ومُعلِّمًا، حيث تعلَّم فيها ثلاثة علوم، وأتقنها ما جعله يرحل عنها إلى دمشق، فبغداد، فالحجاز. قال: "حتَّى اطَّلعت، بفضل الله، على أعراض العلوم الثَّلاثة: علم الكلام، وأُصول الفقه، ومسائل الخلاف، الَّتي هي عُمدة الدّين والطَّريق المَهيعُ إلى التَّدرّب في معرفة أحكام المكلَّفين، الحاويةُ للمسألة والدَّليل، والجامعة للتَّفريع والتَّعليل"[30].

ويُمكن توضيح بعض مظاهر الحياة الثَّقافيَّة في القدس الشَّريف في الحقبة السَّلجوقيّة من خلال الحديث عن عدد من كبار علمائها، وبعض مظاهر العمران فيها، وقد اخترتُ الحديث عن أربعة من أهمّ العلماء المسلمين الَّذين عاشوا في القدس في تلك الحقبة، وكان لهم دور مهم في ازدهار الحركة الثَّقافيَّة فيها، وفي العالم الإسلاميّ، ورأيت أن يكونوا من شرق بلاد المسلمين وغربها مُناصفة، وأن أتحدّث عن أهم المظاهر العمرانيّة السَّلجوقيّة في بيت المقدس، الَّتي لا زالت قائمة حتَّى وقتنا الحاضر(1446 هـ)، وذلك على النّحو الآتي:

أوّلًا: من علماء بيت المقدس في العهد السَّلجوقيّ.

[29] انظر: ابن العربي، العواصم، 45/2.

[30] إحسان عباس، مرجع سابق، 57.

وُجد في القدس في الحقبة السَّلجوقيّة كثير من العلماء المسلمين، ومن أهم هؤلاء العلماء أَربعة هم:

1- **نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن داود بن أحمد النّابلسيّ المقدسيّ الدّمشقيّ الشّافعيّ، عاش ما بين (407-490هـ)** [31].

وُلد في نابلس، ونشأ فيها وحفظ القرآن الكريم صغيرًا، ولمّا أَدرك رحل به والده إلى بيت المقدس الَّتي كانت مقصدًا لِعُلماء المسلمين وطلبة العلم، فأقام بها، وتعلَّم على كبار علمائها، ثمّ انتقل إلى دمشق ليواصل تحصيله العلميّ، فمكث فيها مدَّة يحضر دروس كبار علمائها، وأمضى ثلاث سنوات مُلازمًا العالم المحدّث سليم بن أيوب الرّازيّ، ثمّ عاد إلى بيت المقدس عالمًا في الفقه والحديث والتَّفسير.

وفي بيت المقدس اتّخذ نصر بن إبراهيم زاوية له قرب باب الرَّحمة في المسجد الأقصى المبارك، فأخذ يُدرِّس طلبة العلم، ويعظ النَّاس ويُفقّههم في دينهم، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وقد عُرفت زاويته بالزَّاوية "النَّصريَّة"، ثمّ لمّا قدم الإمام الغزاليّ بيت المقدس درَّس فيها، فعُرفت بالزّاوية "الغزاليّة".

ذاع صيت نصر بن إبراهيم المقدسيّ في بيت المقدس والشَّام، وأَثنى عليه العلماء، ثمّ رحل إلى مدينة صور يُدرّس طلبة العلم، ويُفقّه أهلها، ويردَّ على الشّيعة أضاليلهم، فأسهم بذلك في الحفاظ على سيادة المذهب السُّنِّي فيها، ثمّ انتقل إلى دمشق، فاتَّخذ زاوية له في جامع بني أميّة عُرفت بالزّاوية "النَّصريَّة"، ثمّ لمّا قدم الإمام الغزاليّ دمشق، ودرَّس فيها عُرفت بالغزاليَّة، وكان فيها يُدرّس ويُفتي. وقد زاره في زاويته السُّلطان تاج الدّولة تتش بن ألب أرسلان، ومعه ابنه دقاق، فلم يلتفت له وهو يُدرّس حتَّى انتهى؛ ثمّ سأله في مواضيع كثيرة منها: ما أحلّ الأموال الَّتي يحقُّ للسُّلطان أن يتصرَّف بها؟، فأجابه: أموال الجزية. ولمّا خرج

[31] انظر ترجمته في: المقدسي، مختصر الحجّة: الدّراسة، 19-1139؛ الذهبيّ، سير أعلام النبلاء، 136/19؛ مجير الدّين الحنبلي، الأنس الجليل، 297/1؛ شمس الدّين الغزيّ، ديوان الإسلام، 297/4؛ عمر كحالة، معجم المؤلّفين، 87/13؛ الزركليّ، 20/8.

من عنده، وعاد إلى دار ملكه أرسل له مالًا وقال: "هذا من أموال الجزية، فلم يقبله، بل فرّقه على الأصحاب والفقراء، وقال للرّسول: قُلْ للسُّلطان: لا حاجة لنا إليه. وكان يقتات من غلّة أرض له في نابلس تَصِله مِمَّن يزرعونها. وكان من أهم تلاميذه أبو بكر ابن العربيّ حيث أخذ عنه في دمشق.

كان الشّيخ إبراهيم بن نصر المقدسيّ إمامًا في الحديث، والفقه والتّفسير، وعلوم اللّغة، وكان حليمًا متواضعًا، واسع الصّدر، زاهدًا، لا يخاف سُلطانًا ولا أميرًا فلم يقبل من أحد عطاءً أو صلةً. وكان شجاعًا، عالي الهمّة، قوي النَّفس، طيّب المجالسة، قويّ الفراسة له مواقف مشهودة مع الشّيعة الإسماعيليّة الباطنيّة، فأحبَّه العامَّة والخاصَّة، ولمّا مات خرج في جنازته ما لم تشهده دمشق، ولم يتمّ دفنه إلى ما قبل الغروب، وقد دُفن في مقبرة باب الصَّغير قرب قبر الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وأبي الدّرداء، رضي الله عنهم.

وقد صنّف الفقيه الشّيخ نصر بن إبراهيم المقدسيّ مُصنّفات عديدة في علوم الفقه، والأصول، والمناقب، والحديث، والعقيدة، ومن أهم مؤلّفاته: التّهذيب، والانْتخاب، والكافي، وشرح الإشارة، والمقصود، والتّقريب، والفصول، وتحريم نكاح المُتعة، والحجّة على تارك المحجّة، ومختصر له، ومناقب الإمام الشّافعيّ وغيرها كثير.

2- **محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزاليّ الطُّوسيّ الشَّافعيّ، عاش ما بين(450-505هـ)** [32].

وُلد في قرية الطَّابران من نواحي طوس، ونشأ وتعلَّم فيها، ثمّ رحل في طلب العلم إلى بلاد عديدة منها: جرجان، ونيسابور فأخذ عن علمائهما ولا سيّما إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجوينيّ(ت478هـ)، ثمّ انتقل إلى بغداد فأخذ عن علمائها، وهناك التقى الوزير السَّلجوقيّ نظام الملك الحسن بن عليّ الطوسيّ(ت485هـ)، فحضر مجالس علمه؛ فوقع نظره عليه،

[32] انظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 216/4؛ السبكيّ، طبقات الشّافعيّة، 191/6؛ الذهبيّ، مصدر سابق، 323/19؛ شمس الدّين الغزيّ، مصدر سابق، 376/3؛ ابن العماد الحنبليّ، شذرات الذّهب، 10/4؛ الزركليّ، الأعلام، 22/7؛ عمر كحالة، معجم المؤلّفين، 266/11.

واصطفاه لحاشيته، ثمّ عيَّنه للتّدريس في المدرسة النّظاميّة في بغداد، وكانت في وقتها بمثابة جامعة كبيرة، وقد ذاع صيته فيها، فأقبل عليه طلبة العلم من كلِّ حدب وصوب، وأثنى عليه العلماء. وقد تنقّل الإمام الغزالي في بلدان كثيرة والتقى الإمام والفقيه نصر بن إبراهيم المقدسيّ على الأرجح في دمشق، وجلس يُدرّس في زاويته الَّتي عُرفت باسمه بدلًا من اسم النَّصريّة. وكذلك فعل في زاوية الفقيه نصر ببيت المقدس.

لم يكتف الإمام الغزاليّ بالعمل مُدرِّسًا، بل أخذ يُفكّر في أوضاع الأُمّة وما تُعانيه من مشاكل في مجالات الحياة المختلفة، فقاده تفكيره إلى تأليف كتب كثيرة سعى فيها إلى مُعالجة مشاكل الأمّة الدّاخلية والخارجيّة، وقيل إنّه صنّف أكثر من مائة وأربعين مؤلّفًا، وكان أهمّها ثلاثة هي:

- **المنقذ من الضلال.**

وهو عبارة عن سيرة ذاتيّة للإمام الغزاليّ، بيَّن فيه كيف اهتدى إلى الطّريق القويم في مجتمع كانت تسوده جماعات وأفكار مُتضاربة، وكانت الإسماعيليّة الباطنيّة تعمل بكل ما أوتيت من قوة لتدمير العالم الإسلاميّ، فعاثت في الأرض فسادًا، فكان الوزير نظام الملك وعدد من الخلفاء العباسيّين، والسَّلاطين والأمراء السّلاجقة ضحيّة لهم. ويستحق هذا الكتاب القراءة هذه الأيام لأنّ واقعنا المعيش هذه الأيّام فيه شبه كبير بما كان يعيشه المسلمون زمن تأليف هذا الكتاب.

- **المُستظهريّ (فضائح الباطنيّة وفضائل المستظهريّة).**

وهو كتاب ألّفه الإمام الغزاليّ للخليفة العبّاسيّ المستظهر بالله أحمد بن عبد الله(ت512هـ)، ودعا فيه علماء الأمّة وسلاطينها إلى طاعته باعتباره خليفة الله على الأرض، وطاعته واجبة، وذلك في مواجهة الباطنيّة الَّذين كانوا يريدون القضاء على الخلافة العبّاسيَّة، وتثبيت الخلافة العبيديّة الشِّيعيّة بادّعاء نسبتهم الكاذبة إلى آل بيت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم. وقد بيّن فيه صفات الإمام وواجباته، مؤكّدًا أنَّها متوافرة في الإمام المستظهر.

وكان هدفه الأساس في هذا الكتاب هو: حماية مشروع الخلافة العباسيّة في ظلِّ ما تواجهه الأُمّة من مخاطر الحملات الصّليبيّة وتحالفها مع الخلافة العبيديّة، ولذلك دعا السَّلاطين والأمراء السّلاجقة إلى تأييد الخلافة العبَّاسيّة، والالتفاف حول الخليفة المستظهر، وسيلة لتوحيد الأمّة في مواجهة المخاطر المحدقة بها.

وتظهر قيمة هذا الكتاب اليوم لا بل منذ حوالي مائة عام حيث تمكّن الغرب النّصرانيّ بمؤامراته ولأول مرّة في التاريخ الإسلاميّ من إلغاء مركز الخليفة في عالم الإسلام، ما جعل المسلمين مُشتَّتين لا يوجد لهم مرجعيَّة دينيَّة واحدة، وهذا أسهم في تفتيت العالم الإسلاميّ، وتعدُّد مرجعيّاته الدّينيّة، وتفرّق عامَّة النَّاس المسلمين وخاصَّتهم، فيما لا يوجد دين في العالم ليس له مرجعيَّة قادرة على ضبط شؤون أتباعه.

- **إحياء علوم الدّين.**

في رحلته إلى الحجّ، والبحث عن الحقيقة، والطَّريق المستقيم الَّتي امتدّت عشر سنوات تقريبًا، وزار فيها بلادًا عديدة منها: دمشق، وبيت المقدس، والدّيار المقدّسة في الحجاز رأى الإمام الغزاليّ حال الأُمّة؛ عامَّتها وخاصَّتها على حدّ سواء، وفكّر فيه، فوجد أنّ الدّين ميّت في نفوس النّاس، وأنّهم يقومون بالعبادات من دون أن تنعكس على مُعاملاتهم، ورأى أنَّ ذلك هو سبب الضَّنك الَّذي تعيشه الأُمّة، فألّف هذا الكتاب وسمَّاه بهذا الاسم آملًا فعلًا في أن يتمكّن من إحياء الدّين في نفوس المسلمين لكي يتمكّنوا من معالجة شؤون حياتهم، والنُّهوض بالأُمة وإعادة مجدها وعزّها.

وإنني أعتقد أنّنا بأمس الحاجة لدراسة وتدريس هذا الكتاب في هذه الأيام في كلّ مناسبة؛ لأنّ الواقع الَّذي دفع الإمام الغزاليّ إلى تأليفه قائم في أيامنا هذه(1446هـ)، وهو كما صلح علاجًا لتلك الأوضاع لا شك في أنّه سيكون صالحًا اليوم مع الأخذ بما بين العصرين من تغيُّرات.

3- **الإمام أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد الفهريّ، القرشيّ، المالكيّ، الطَّرطوشيّ، الأندلسيّ. عاش ما بين(520-451هـ)** [33].

وُلد ونشأ وتعلّم في مدينة طرطوشة بالأندلس، وأخذ المنطق، والفرائض، وعلوم العربيّة وآدابها، والحساب على كبار علماء الأندلس ومنهم: أبو الوليد الباجي، وابن حزم الأندلسيّ، ثمّ هاجر إلى المشرق الإسلاميّ طلبًا للعلم، وذلك جريًا على عادة أهل الأندلس في طلب علم أهل المشرق، وقد وصل البصرة سنة(476هـ)، فأخذ عن علمائها، ثمّ وصل بغداد فتتلمذ على أبي بكر محمد بن أحمد الشاشيّ المستظهريّ، وعلي بن أحمد الجرجانيّ، وغيرهما. ثمّ انتقل إلى دمشق الشَّام فأقام فيها مدّة، وتعلّم على عدد من كبار علمائها، وأعطى دروسًا في الجامع الأمويّ، وبعض مدارس دمشق.

وقد وصل القدس سنة(484هـ) حيث كان قد حصَّل كثيرًا من العلوم، فاستقرَّ بها، ولقي فيها تشجيعًا من حكّامها الأراتقة، فبدأ التَّدريس في المسجد الأقصى المبارك، ثمّ لمّا ذاع صيته اتّخذ لنفسه مجالس علم، يأتي إليها طلبة العلم، فيتتلمذون عليه، كما كان يعقد في مجالسه مناظرات علميّة مع عدد من كبار العلماء الَّذين كانوا جاؤوا إلى بيت المقدس، فاستقرُّوا، أو جاوروا، أو تقديسًا لِحجّة، وقد ذكر لنا العالم والمفسّر والفيلسوف، والأديب الأندلسيّ أبو بكر ابن العربيّ أسماء مجلسين من مجالس العلم الَّتي كانت لِبَلَدِيّه أبي بكر الطرطوشيّ، وهما:

أ- **الغوير:** وكان يقع بين باب الأسباط، شمالي شرقي الحرم القدسيّ الشَّريف، وبين محراب زكريا في ساحة الحرم القدسيّ الشَّريف.

ب- **السَّكينة:** وكان يقع في منطقة باب السِّلسلة، شمالي غربيّ المسجد الأقصى المبارك، وكان الإمام الطّرطوشيّ من الأسباب الَّتي دفعت أبي بكر ابن العربيّ للمكوث في بيت المقدس

[33] انظر ترجمته في: ابن سعيد المغربيّ، المغرب في حلى المغرب، 24/2؛ ابن خلكان، مصدر سابق، 262/4؛ الذهبيّ، مصدر سابق، 490/19؛ ابن العماد الحنبليّ، مصدر سابق، 62/4؛ شمس الدّين الغزيّ، مصدر سابق، 240/3؛ الزركليّ، مصدر سابق، 133/7؛ عمر كحالة، مصدر سابق، 96/12.

حيث أُعجب بدروسه ومُناظراته، فتتلمذ عليه طويلًا، وقد أشاد به أبو بكر ابن العربيّ في رحلته، وأثنى على علمه وطريقته في التّعليم.

4- الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله المعافريّ، الإشبيليّ، الأندلسيّ، المعروف بابن العربيّ. عاش ما بين(543-468هـ) [34].

درس ابن العربيّ على والده، وخاله، ثمّ اختار له والده ثلاثة مُعلّمين خصوصيّين، ولمّا سمع أحاديث والده عن علماء المشرق وعلمهم، وقع في نفسه أن يُهاجر إليه لتحصيل علومه، وما أن سنحت له الفرصة لذلك عندما قضى يوسف بن تاشفين على دولة بني عبّاد في إشبيليّة، فأراد والده الحجّ والابتعاد عن السّياسة (لكنّ صهره أراد تقريبه من ابن تاشفين؛ فحمّله رسالة إلى الخليفة العباسيّ في بغداد، فكانت رحلة دينيّة ودنيويّة)، فعرض الأمر على ابنه، وكان فتى ابن ستة عشر عامًا فوافق من دون تردّد.

وصل ابن العربيّ قادمًا من مصر - مركز الخلافة العبيديّة الشّيعيّة الإسماعيليّة -رفقة والده بيت المقدس في ذي الحجّة سنة (485هـ) (أي بعد مُضي عشرة أشهر على مغادرته بلده إشبيليّة)، قال: "ثمّ رحلنا عن ديار مصر إلى الشَّام، وأملنا الأمام، فدخلنا الأرض المقدسة". وقال: "ثمّ خرجت عنهم (أي العبيديّين حكّام مصر) إلى الشَّام، فوردّتُ البيت المقدّس"[35].

وقد استمرّ وجود ابن العربيّ في الأرض المقدّسة أكثر من ثلاث سنوات، وفي مرحلة الإياب أمضى ابن العربي في القدس بضعة أسابيع، ثمّ سافر إلى الإسكندرية، فوصلها أوائل سنة (492هـ)، قبيل سقوط القدس الشَّريف بيد الصّليبيّين (الفرنجة). وقد تعلّم أبو بكر ابن العربيّ في القدس وغيرها من البلاد الفلسطينيّة علومًا كثيرة، وأخذ عن كثير من علمائها وبخاصّة عن بَلَدِيّه أبي بكر الطَّرطوشيّ الَّذي كان سببًا مباشرًا في بقائه بالقدس، كما التقى

[34] انظر ترجمته في: ابن بشكوال، الصّلة، ص590؛ الضبيّ، بغية الملتمس، 80؛ ابن خلكان ، مصدر سابق، 297/4 ؛ ابن سعيد الأندلسيّ، مصدر سابق ، 254/1 ؛ الصفديّ ، الوافي بالوفيات، 265/3 ؛ ابن فرحون ، الديباج، 376؛ التنبكتيّ، شجرة النور، 146/1 ؛ المقّريّ ، نفح الطيب، 199/2 .

[35] ابن العربيّ، العواصم، 45/2.

نصر بن إبراهيم المقدسيّ في دمشق، وأخذ عنه بعض علومه، والتقى الإمام الغزاليّ في بغداد، ثمّ في صحراء بادية الشَّام وأخذ عنه، وذلك في طريق عودته من الدّيار الحجازيّة بعدما أدّى فريضة الحج سنة(490هـ).

ثانيًا-من مظاهر العمران السَّلجوقيّة في بيت المقدس.

ترك السّلاجقة في بيت المقدس عمائر عديدة ومن أهمّها:

1- **مصلّى في شرقيّ المسجد الأقصى.**

وهو عبارة عن مقصورة لصلاة الأمير السَّلجوقيّ تاج الدّولة تتش بن ألب أرسلان، أضافها للمسجد الأقصى المبارك في الحائط الشرقيّ منه قرب الباب الشرقيّ، حيث يستطيع الدّخول إلى المسجد والصّلاة فيه من دون أَن يتخطّى رقاب المسلمين، ويشعر بالأمن والأمان وهو يؤدّي العبادة وبخاصّة أنّ الباطنيّة كانت ما تزال لها تأثير ووجود في القدس، وكانت تقوم بعمليات اغتيال ضد القادة المسلمين.

ويوجد على هذا المصلّى نقش يعود إلى عهد تاج الدولة تتش، وهو يثبت بالوجه القطعيّ نسبة هذا المصلّى المقصورة للحقبة السَّلجوقيّة ونص النقش هو:" بسم الله الرّحمن الرّحيم، نَصرٌ من الله للإمام أبي القاسم عبد الله الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين ... وأمر بعمله الملك الأجلّ المُؤيّد المنصور المظفّر تاج الدَّولة، وسراج الملّة وأشرف الأُمّة أبي سعيد تتش بن ملك الإسلام. ناصر أمير المؤمنين، أعزّ الله نصره، جرى ذلك على يد الوزير الأجلّ فخر المع [الي ناصح الدّولة، أبو نصر أحمد بن الفضل ابتغاء ثواب الله ... للملّة توقيفه، وكُتب في ذي الحجّة سنة ستٍّ، أو سبعٍ وسبعين وأربعماية، وصلّى الله على محمد"[36].

2- **المدرسة النَّصريَّة (الغزاليَّة ثمّ الصَّلاحيَّة).**

لا شك لديّ في أنّ زحف السّلاجقة إلى بيت المقدس كان بهدف تحريرها من العبيديّين، واتّخاذها مركزًا للتعليم الإسلاميّ، ونشر الإسلام القويم بين النّاس الَّذين عانوا كثيرًا من

[36] خضر سلامة، نقش سلجوقيّ من المسجد الأقصى: حوليات القدس، العدد 16، 54.

ظلم الدولة العبيديّة الشِّيعيّة واضطهادها لهم، وإجبارهم على اعتناق مبادئها، ثمّ الانطلاق منها إلى تحرير مصر وباقي البلاد الإسلاميّة من الدولة العبيديّة، وهذا ما حصل فعلًا سنة(469هـ) حيث تحرّك جيش ضخم بقيادة أُتسز من الشَّام قاصدًا مصر للقضاء على الدولة العبيديّة وخلافتها الرّافضة، وإعادة البلاد إلى حظيرة الإسلام وخليفته العباسيّ، لكنّ إرادة الله لم تشأ ذلك فهُزِم تتش، وتأجّل الفتح والقضاء على دولة العبيديّين زهاء مائة عام، حيث قضى عليها السُّلطان النّاصر صلاح الدّين الأيوبيّ بتوجيه من السُّلطان نور الدّين محمود زنكي سنة(567هـ).

وقد استخدم السَّلاجقة المدارس والمساجد وحلقات العلم؛ لإقناع النّاس بالإسلام والعودة إليه بعدما أجبرهم العبيديّون على اتباع مذهبهم الرّافضيّ، وأكثروا من بناء المدارس وبخاصة في ظلّ الوزير نظام الملك الحسن بن عليّ، منشئ المدارس النِّظاميّة، فذكر ابن العربيّ أنّه كان في القدس عندما أقام فيها سنة(485هـ) مدارس عديدة للحنفيَّة والشَّافعيّة، وزار اثنتين منها هما: واحدة بباب الأسباط للشَّافعيّة، والثانية مدرسة أبي عقبة قرب كنيسة القمامة، قال: "فوَرَدتُ البيتُ المقدّس، طهّره الله، فألفيتُ فيه ثمّاني وعشرين حلقةً، ومدرستين إحداهما للشَّافعيّة بباب الأسباط، والأخرى للحنفيّة بإزاء قُمامة، تُعرف بمدرسة أَبي عقبة"[37].

والأرجح عندي أنَّ المدرسة الشّافعيّة الَّتي بباب الأسباط هي الَّتي سُمّيت بعد تحرير القدس على يد صلاح الدّين الأيوبيّ باسم المدرسة الصَّلاحيّة، والَّتي ظلّت تُؤدّي دورها حتَّى سنة (1273هـ) حين منح حقّ الانتفاع منها السُّلطان عبد المجيد لفرنسا مكافأة لها على مساعدتها الدّولة العثمانيّة في الحرب ضد روسيا القيصريّة، ثمّ في سنة (1332هـ) عند نشوب الحرب العالميّة الأولى استرجعها قائد الجيش الرّابع العثمّانيّ أحمد جمال باشا الكبير، وحوَّلها إلى كلّية جامعيّة باسم "كلية صلاح الدّين الإسلاميّة"، ووضع لها نظامًا تعليميًّا راقيًا، وبقيت تعمل حتَّى سقوط القدس بيد الاحتلال البريطانيّ حيث كان من أوائل

[37] ابن العربي، العواصم، 45/2.

الأعمال الَّتي قام بها الجنرال الإنجليزيّ "إدموند اللنبي" هو إغلاق "كلية صلاح الدّين الإسلاميّة" لمنع تعليم أبناء فلسطين، وأعطاها لحلفاء دولته في الحرب وهم الفرنسيُّون، وهي ما تزال تابعة لجمعية الآباء البيض التّبشيريّة الكاثوليكيّة الفرنسيّة.

3- **قلعة القدس.**

تقع على سور المدينة المقدّسة الغربيّ، إلى الجنوب من باب الخليل(يافا)، وهي أعلى نقطة في البلدة القديمة بالقدس الشَّريف.

وقد سمَّاها أبو بكر ابن العربيّ باسم "محراب داود"، لكنّ وصفه الدَّقيق لها، وذكره وجود مسجد بأعلاه يجعلني أُؤكّد أَنّه يقصد القلعة، قال: "وفي أَعلاه المسجد، وبه كُوَّة شرقيّة إلى المسجد الأقصى في قدر الباب"[38]. وذكر أحداث فتنة حدثت فيه استدلَّ منها على قلَّة فضول أهل القدس مقارنة مع أهل الأندلس، كما أنَّ بعض المؤرّخين ذكروا أنّ الأمير أتسز السَّلجوقيّ عندما غزا بلاد مصر للقضاء على الدّولة العبيديّة سنة(469هـ) وضع نساءَه، ومُمتلكاته، وعبيده، وجواريه في القلعة؛ لكي يطمئن عليهم فيكونوا في أمان طوال غزوته، ولمَّا هُزِم هاجمهم أتباع العبيديّين في القدس، وانتقموا منهم، قال: "وكان أتسز وأَصحابه قد تَركوا أموالهم بالقدس، فوثب القاضي والشُّهود، ومَنْ بالقدس على أموالهم ونسائهم فنهبوها، وقسَّموا التُّركيّات بينهم، واستعبدوا الأحرار من الأولاد واستَرقُّوهم، فخرج من دمشق فيمَنْ ضَوى إليه من التُّركمان، ووصل إلى قريب القدس، وراسلهم، وبذل لهم الأمان، فأجابوه بالقبيح، وتوعَّدوه بالقتال، فجاء بنفسه إلى تحت السُّور، فخاطبهم وسبُّوه، فقاتلهم يومًا وليلة، وكان ماله وحُرمه في برج داود، ورامَ السُّودان والمصامدة الوصول إليهم فلم يَقدِروا، وكان في البرج نفق إلى ظاهر البلد، فخرج أهله منه إليه، ودَلُّوه عليه، فدخل منه ومعه جماعة من العسكر، وخرجوا من المحراب، وفتحوا الباب، ودخل العسكر، فقتلوا ثلاثة آلاف إنسان"[39].

[38] ابن العربيّ، أحكام القرآن، 1586/4.

[39] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 325/19، وانظر: ابن الأثير، مصدر سابق، 103/10.

الخاتمة:

بعد الانتهاء من كتابة هذا البحث، يمكن الخروج بالنتائج والتوصيات الآتية:

- أنّ العبيديّين ساعدوا الفرنجة في حربهم ضد السّلاجقة، وأرادوهم قوة فاصلة بينهم وبين السّلاجقة، لذلك فاوضوهم على أعلى مستوى، واتفقوا على اقتسام الشّام معهم بعد طرد السّلاجقة منه.
- الفرنجة استغلوا خوف العبيديّين من السّلاجقة، وبعد أن حقّقوا أهدافهم في شمال بلاد الشام، واحتلوا أنطاكية ومعرّة النّعمان تقدّموا إلى بيت المقدس هدفهم الرئيس، وأخذوها من العبيديّين، ولم يُعيروا اتفاقهم معهم أي اهتمام.
- الحياة الثقافية في بيت المقدس كانت مُزدهرة تجذب إليها علماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي: مشرقه ومغربه على حدٍّ سواء، وذلك بفضل الحرية الفكرية التي أتاحها حكام القدس الأراتقة، وهذا الازدهار الثقافي جعل أبا بكر ابن العربيّ يطلب من والده البقاء في القدس حتّى يُحصِّل ما يستطيع من علم علمائها، فوافق الأب ابنه وانفصلا عن قافلة حجّهم.
- الحياة الثقافية في فلسطين كانت مُزدهرة بشهادة أبي بكر ابن العربيّ الذي زار عسقلان، وعكا، ونابلس وغيرها من المدن الفلسطينيّة وقراها، وأشاد بما فيها من حياة ثقافيّة في مختلف فروع العلم.
- انتشرت مجالس العلم والمناظرات العلميّة والدينيّة في القدس وغيرها من المدن الفلسطينيّة التي زارها أبو بكر ابن العربيّ، وكان يشترك فيها علماء مسلمون من أتباع المذاهب الأربعة، ومن الشِّيعة الإسماعيليّة الباطنيّة، والنّصارى واليهود والسُّمرّة، وهذه المجالس تدلّ على التَّسامح الدينيّ، والأمن العام الَّذي كان يتوافر للمواطنين في الإمارة السَّلجوقيّة حديثة العهد.

- كان العلماء المسلمون يتنقّلون بسهولة في ظلِّ حكم السّلاجقة والعبيديّين في مختلف مناطق العالم الإسلاميّ، وذلك يَظهر بوضوح فيما ذكره أبو بكر ابن العربي عند عبوره أراضي الدّولة العبيديّة في مصر وليبيا وتونس، وأراضي السلاجقة في الشّام وكذلك الحال تنقّل الإمام الغزالي والشيخ نصر بن إبراهيم النابلسيّ المقدسيّ، وغيرهما من العلماء.

أمّا التوصية التي أوصي بها فهي ضرورة الاهتمام بدراسة الرّحلات، والسّير الذاتية أو الغيريّة ففيها كثير من المعلومات التي قد لا توجد في كتب المؤرّخين وأدب الأدباء.

المصادر والمراجع

أوّلًا: المصادر

ابن الأثير، محمد بن محمد الشيبانيّ (ت. 630هـ). **الكامل في التاريخ**. بيروت: دار صادر، 1399هـ/ 1979م.

البنداريّ، الفتح بن علي (ت. 643هـ). **تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهاني**. ط.2. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1978م.

ابن الجوزيّ، عبد الرحمن بن علي. **المنتظم في تواريخ الملوك والأمم**. تحقيق وتقديم سهيل زكّار. إشراف مكتب البحوث والدّراسات. بيروت: دار الفكر، 1415هـ/ 1995م.

ابن خلّكان، أحمد بن محمد (ت. 681هـ). **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزّمان**. تحقيق إحسان عبّاس. بيروت: دار صادر، 1392-1397 هـ/ 1972-1979م.

الرّاونديّ، محمد بن علي (ت. بعد 600هـ). **راحة الصدور و آية السّرور في تاريخ الدولة السَّلجوقيّة**. ترجمة إبراهيم الشواري وزميليه. تقديم بديع جمعة. القاهرة: المجلس الأعلى للثّقافة، المشروع القومي للترجمة، (سلسلة ميراث الترجمة: 996). 1379هـ/ 1960م.

سبط بن الجوزي، يوسف بن قزاوغلو (ت. 654هـ). **مرآة الزمان؛ الحوادث الخاصة بتاريخ السّلاجقة**. نشر علي سويم. أنقرة: الجمعية التاريخية التركية، 1968م.

شمس الدّين الغزيّ، محمد بن عبد الرّحمن (ت. 1167هـ). **ديوان الإسلام، وبحاشيته كتاب أسماء كتب الأعلام**. تحقيق سيّد كسروي حسن. ط.1. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1411هـ/ 1990م.

الشّهرستانيّ، محمد بن عبد الكريم (ت. 548هـ). **الملل والنّحل**. أعيد طبعه بالأوفست. تحقيق محمد سيد كيلانيّ. بيروت: دار المعرفة، 1400هـ/ 1980م.

ابن العربي، محمد بن عبد الله (ت. 543هـ). **أحكام القرآن**. ط.2. (فيها زيادة ضبط وشرح وتعليق). تحقيق علي البجاويّ. القاهرة: عيسى البابي الحلبيّ وشركاه، 1387هـ/1967م.

العواصم من القواصم. تحقيق عمّار طالبي. القاهرة: مكتبة دار التراث، د.ت.

المقدسيّ، نصر بن إبراهيم (ت. 490هـ). **مختصر الحجّة على تارك المحجّة**. تحقيق وتخريج ودراسة محمد إبراهيم هارون. ط.1. الرّياض: دار أضواء السّلف، 1425هـ/2005م.

ابن القلانسيّ، حمزة بن أسد (ت. 555هـ). **ذيل تاريخ دمشق تتلوه نخب من تواريخ ابن الأزرق وسبط ابن الجوزيّ والحافظ الذهبيّ**. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيّين، 1980م.

ياقوت الحمويّ، ياقوت بن عبد الله (ت. 626هـ). **معجم البلدان**. بيروت: دار صادر، 1986م، (تراث العرب).

ثانيًا: المراجع

أعراب، سعيد. **مع القاضي أبي بكر بن العربي**. ط.1. بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، الجمعيّة المغربيّة للتأليف والتّرجمة والنّشر، 1407هـ/1987م.

الحياريّ، مصطفى. **القدس في زمن الفاطميّين والفرنجة**. عمّان: مكتبة عمان، 1994م. (المعهد الملكي للدّراسات الدينيّة).

سلامة، خضر. "نقش سلجوقيّ من المسجد الأقصى." **حوليات القدس** 16 (خريف-شتاء 2013م): 51-60.

ضيف، شوقي. **تاريخ الأدب العربي (5): عصر الدول والإمارات: الجزيرة الفراتية والعراق وإيران**، القاهرة: دار المعارف، 1980م.

عبّاس، إحسان. **فصول حول الحياة الثَّقافيّة والعمرانيّة في فلسطين**. ط.1. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 1993م.

عثامنة، خليل. **فلسطين في خمسة قرون من الفتح الإسلاميّ حتَّى الغزو الفرنجيّ (634-1099)**. ط.1. بيروت: مؤسّسة الدّراسات الفلسطينية، 2000م.

أبو النّصر، محمد. **السّلاجقة تاريخهم السياسيّ والعسكريّ**. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2003م.